

تفسير ابن كثير

يقول تعالى أمرا رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه وأن يهجرهم هجرا جميلا وهو الذي لا عتاب معه ثم قال له متهددا لكفار قومه ومتوعدا وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء { وذرنى والمكذبين أولي النعمة } أي دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم { ومهلهم قليلا } أي رويدا كما قال تعالى : { نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ } ولهذا قال ههنا : { إن لدينا أنكالا } وهي القيود قاله ابن عباس وعكرمة وطاوس ومحمد بن كعب وعبد الله بن بريدة وأبو عمران الجوني وأبو مجلز والضحاك وحامد بن أبي سليمان وقتادة والسدي وابن المبارك والثوري وغير واحد { وجحيما } وهي السعير المضطربة { وطعاما ذا غصة } قال ابن عباس : ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج { وعذابا أليما * يوم ترجف الأرض والجبال } أي تزلزل { وكانت الجبال كثيبا مهيلا } أي تصير ككتبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء ثم إنها تنسف نسفا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب حتى تصير الأرض قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا أي واديا ولا أمنا أي رابية ومعناه لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع ثم قال تعالى مخاطبا لكفار قريش والمراد سائر الناس : { إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم } أي بأعمالكم { كما أرسلنا إلى فرعون رسولا * فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلًا } قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي والثوري { أخذا وبيلًا } أي شديدا أي فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول فيصيبكم ما أصاب فرعون حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى : { فأخذه الله نكال الآخرة والأولى } وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتكم رسولكم لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران ويروى عن ابن عباس ومجاهد .

وقوله تعالى : { فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا } يحتمل أن يكون يوما معمولا لتتقون كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود فكيف تخافون أيها الناس يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به ؟ ويحتمل أن يكون معمولا لكفرتم فعلى الأول كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفرع العظيم إن كفرتم وعلى الثاني كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجدتموه وكلاهما معنى حسن ولكن الأول أولى والله أعلم ومعنى قوله { يوما يجعل الولدان شيبا } أي من شدة أهواله وزلازله وبلابله وذلك حين يقول الله تعالى لادم ابعث النار فيقول من كم فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة قال الطبراني : حدثنا يحيى بن أيوب العلاف حدثنا سعيد بن أبي مریم حدثنا نافع بن يزيد حدثنا عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس Bهما أن رسول الله صلى

اﻟﻌﻠﻴﻪ ﻭﺳﻼﻡ ﻗﺮﺁ { ﻳﻮﻣﺎ ﻳﺠﻌﻞ ﺍﻟﻮﻟﺪﺍﻥ ﺷﻴﺒﺎ } ﻗﺎﻝ : [ﺫﻟﻚ ﻳﻮﻡ ﺍﻟﻘﻴﺎﻣﺔ ﻭﺫﻟﻚ ﻳﻮﻡ ﻳﻘﻮﻝ
اﻟﻠﻪ ﻟﻤﻮﺕ ﻣﻨﻪﻡ ﻗﺎﻡ ﻓﺎﺑﻌﺚ ﻣﻦ ﺫﺭﻳﺘﻚ ﺑﻌﺘﺎ ﺇﻟﻰ ﺍﻟﻨﺎﺭ ﻗﺎﻝ ﻣﻦ ﻛﻢ ﻳﺎ ﺭﺏ ؟ ﻗﺎﻝ ﻣﻦ ﻛﻞ ﺃﻟﻒ ﺗﺴﻌﻤﺎﺋﺔ
ﻭﺗﺴﻌﺔ ﻭﺗﺴﻌﻮﻥ ﻭﻳﻨﺠﻮ ﻭﺍﺣﺪ ﻓﺎﺷﺘﺪ ﺫﻟﻚ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﻤﺴﻠﻤﻴﻦ ﻭﻋﺮﻑ ﺫﻟﻚ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻠﻪ ﻭﺻﻠﻰ ﺍﻟﻠﻪ ﻋﻠﻴﻪ ﻭﺳﻼﻡ
ﺗﻢ ﻗﺎﻝ ﺣﻴﻦ ﺃﺑﺺﺭ ﺫﻟﻚ ﻓﻲ ﻭﺟﻮﻫﻬﻢ ﺇﻥ ﺑﻨﻲ ﺁﺩﻡ ﻛﺘﻴﺮ ﻭﺇﻥ ﻳﺄﺟﻮﺝ ﻭﻣﺄﺟﻮﺝ ﻣﻦ ﻭﻟﺪ ﺁﺩﻡ ﻭﺇﻧﻪ ﻻ
ﻳﻤﻮﺕ ﻣﻨﻬﻢ ﺭﺟﻞ ﺣﺘﻰ ﻳﻨﺘﺸﺮ ﻟﺼﻠﺒﻪ ﺃﻟﻒ ﺭﺟﻞ ﻓﻔﻴﻬﻢ ﻭﻓﻲ ﺃﺷﺒﺎﻫﻬﻢ ﺟﻨﺔ ﻟﻜﻢ] ﻫﺬﺍ ﺣﺪﻳﺚ ﻏﺮﻳﺐ ﻭﻗﺪ
ﺗﻘﺪﻡ ﻓﻲ ﺃﻭﻝ ﺳﻮﺭﺓ ﺍﻟﺤﺠﺰ ﺫﻛﺮ ﻫﺬﻩ ﺍﻟﺤﺎﺩﻳﺚ ﻭﻗﻮﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ : { ﺍﻟﺴﻤﺎﺀ ﻣﻨﻔﻄﺮﺏ ﺑﻪ } ﻗﺎﻝ ﺍﻟﺤﺴﻦ
ﻭﻗﺘﺎﺩﺓ ﺃﻱ ﺑﺴﺒﺒﻪ ﻣﻦ ﺷﺪﺗﻪ ﻭﻫﻮﻟﻪ ﻭﻣﻨﻬﻢ ﻣﻦ ﻳﻌﻴﺪ ﺍﻟﺰﻣﻴﺮ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﻠﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ : ﻭﺭﻭﻱ ﻋﻦ ﺍﺑﻦ ﻋﺒﺎﺱ
ﻭﻣﺠﺎﻫﺪ ﻭﻟﻴﺲ ﺑﻘﻮﻱ ﻻﻧﻪ ﻟﻢ ﻳﺠﺮ ﻟﻪ ﺫﻛﺮ ﻫﻨﺎ ﻭﻗﻮﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ : { ﻛﺎﻥ ﻭﻋﺪﻩ ﻣﻔﻌﻮﻻ } ﺃﻱ ﻛﺎﻥ ﻭﻋﺪ
ﻫﺬﺍ ﺍﻟﻴﻮﻡ ﻣﻔﻌﻮﻻ ﺃﻱ ﻭﺍﻗﻌﺎ ﻻ ﻣﺤﺎﻟﺔ ﻭﻛﺎﺋﻨﺎ ﻻ ﻣﺤﻴﺪ ﻋﻨﻪ